

على قمة الدنيا وحيدا

تحاول هذه المجموعة أن تركز نفسها حول خمس نقاط :

١ - فهي تنطلق من احساس حاد بالغربة : على قمة الدنيا وحيدا ، هو كذلك عنوان أهم قصائد المجموعة . فيستحيل الشهيد وائل زعير الى رمز فلسطيني شامل . فهو الحنين الى الارض ، وهو الغربة الشاملة الساحقة . لكن وحدته تستحيل مع فعل الموت الذي يدخل فيه الى جسر للوصول صوب الآخرين :

« نحن نمضي ونسافر

وتلاقيك ، وتلاقيك على

قمة الدنيا وحيدا يا بعيدا ، يا

قريبا ، يا الذي نحويه فيضا في الخلايا ،

في مسام الجلد ، في نبض الشرايين التي

وترها احزن المكابر »

هذا الامتداد الذي يشكل قمة التوتر الشعري في القصيدة ، هو قمة محاكمة بسفحين من الحنين الرومانسي والتنجع العاطفي . فالغربة تبقى غربة فردية لها سماتها الخاصة ، وهي حين تحاول أن تتعمم لا تلبث أن تعود الى الشعارات الجاهزة والخاتمة المتوقعة . فالوت هنا ، هو موت حقيقي وغيابي . والتجربة الشعرية لا تستطيع أن تمسك به كحظة تاريخية . من هنا تصبح الغربة فردية ، رغم محاولة اقتناعنا بجماعيتها ، ورغم ما فيها هي كتجربة حية من امتداد يتخطى الفرد ، ويصب في النقطة التي توحد شعبا بأكله . هذه الغربة الفردية ، لا تلبث ان تطلعنسا في أولى قصائد المجموعة « في المدينة الهرمة » فالتداعي بين لندن وناپلس يستطيع ان يتجاوز مسألة وعد بلفور ليصل الى صلب العلاقة الامبريالية نفسها . لكننا هنا ، بين وعد بلفور وبين تحقيقه في مجنزرة اسرائيلية تعبر شوارع الضفة الغربية . لذلك يأتي النفس الشعري خائفا من المواجهة . يحاذي المسألة ، ويتطلع اليها ، دون ان يصل الى ربط المسألتين . « كلنا في حصار التوحد » تقول القصيدة . وينساب اللحن جنازيا امام العجز الكامل عن مواجهة الحقيقة . فالحقيقة المرة نعتادها دون أن نواجهها ونبقى في الوحدة الغائلة .

تتابع عدوى طوقان في مجموعتها الشعرية الجديدة « على قمة الدنيا وحيدا » الخط الذي رسمته لنفسها في مجموعاتها السابقة . فهي تبقى أسيرة الحزن بمعناه الرومانسي الفردي المباشر . وتبقى ضمن شبكة لغتها الشعرية المائلة الى القنامة والرتابة . وهي حين تحاول أن تجد لنفسها مكانا في الشعر الفلسطيني المعاصر تبقى على طرف هذا الشعر ، تحاول الحوار معه ومع نماذجه ، غير ان الصدفلة تظل أقوى من الرياح التي تهب ، فلا تفتح الا ببطء شديد وتعود بعد ذلك الى الانغلاق باحثه عن نقاط سابقة تستطيع استيعاب المجاري الجديدة . والتحول البطيء نحو الغنائية الجماعية الذي نشهده في هذه المجموعة الجديدة ، هو وليد تطور بطيء بدأ مع مجموعتها « الليل والفرسان » التي حاولت فيها الاقتراب من نماذج الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة . لكنها بقيت عند الحدود الخارجية الوصفية لهذه النماذج . من هنا يحاول الشعر الفلسطيني ان يتقز عبر تثوير لغته وتشكيله ، بينما تشي طوقان ببطء شديد على القاعدة القديمة التي بنتها لنفسها عبر ممارسة الشعر فترة طويلة من الزمن .

ماذا تقدم هذه المجموعة ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ، فاننا سنحاول أن نقرأ المجموعة قراءة نقدية تسمح لنا باكتشاف مفاصل الحركة الشعرية . تضم المجموعة اثنتي عشرة قصيدة تتراوح بين البكائيات الحزينة والمرائي وتشذ قصيدتان عن هذا المنحى الفاجع : « نبوءة العرافة » و« أغنية صغيرة لليأس » . هنا يحاول الشعر اختراق رتابته بالوصول الى الغنائية الجماعية التي تنفجر وسط الالم . غير ان محاولة الاختراق هذه تصطدم بالتراث الشعري الخاص الذي بنته طوقان فلا يلبث الإيقاع الرتيب من التغلب على انطلاقة المحاولة . وتعود المجموعة لتنتهي الى رؤية شعرية خاصة تبعدها عن مسار الحركة الشعرية الفلسطينية بياراتها المختلفة . لكنها لا تسمح لطوقان بتشكيل تيار خاص بها . غليس في هذه التجربة شمول لغوي او رؤيوي ، أي انها لا تؤسس ، بل تتابع . من هنا تبقى صوتا خاصا له مذاقه ودوره .